# أعتاب الفردوس

بقلم : هدى جاد

تجلس ناهد على أريكة الصالة ذات الوسائد .. ان الاريكة واسعة .. عريضة .. طويلة .. تماما كحياتها.. يخيل لناهد انها متزوجة من عشرين عاما .. مع انها .. هى نفسها .. لم تتم بعد العشرين من عمرها

تتأمل ناهد .. الوسائد .. المربع منها والمستدير .. والتى صنعتها وطرزتها وتفننت فى اختيار ألوانها .. لقد حفظتها عن ظهر قلب .. كما حفظت كل زاوية من زوايا البيت .. هذا الباب الضخم الذى يفصل بين حائطين .. حائط الصالون وحائط الصالة .. الاخشاب السميكة تفصل بين ضلفه .. ذات الزجاج السميك غير الشفاف ..

باللتشابه انه كحماتها ! .. التى تقف حاجزا منيعا .. شامخا .. عريضا .. تفصل بينها وبين زوجها .. زوجها ؟ وهل هو نموذج لكل الازواج .. أو .. حتى .. بعضهم لو كانت الزوجات.. هكذا مثلها.. يقمن فى الصباح .. لاعداد الافطار وظهرا لاعداد الغداء و .. لا .. انها لاتعد العشاء .. فزوجها ـ غالبا ـ ما يتناوله فى الخارج .. أين ؟ انها لاتدرى .. ويجب الا تدرى لقد حذرتها حماتها مرارا بألا تفكر فى هذا الأمر الذى لا يخصها بتاتا .

ولو كان الأزواج هكذا..على شاكلة زوجها .. لعاش الناس كلهم فى حالة انفصال .. ثم تتنهد وتحاول أن تريح جسمها المكدود فتستند بظهرها الى الوسائد واذا بها تكاد تستلقى .. وتتعجب .. هل لأن الأريكة واسعة.. عريضة .. طويلة .. أم لأنها هى نفسها .. صغيرة .. قصيرة .. نحيفة .. وتحس بالضجر فترنو الى البيانو .. بحسرة ..

كم تحب الموسيقى .. وتستعذبها .. انها ـ أحيانا ـ تذيب أشجانها فتطلق الدموع من عينيها وأحيانا .. تشدها الى أعلى .. فتحلق وتحلق ويزداد وجيب قلبها ..

تمد يدها وترفع غطاء البيانو لكنها سرعان ماتعدل عن فتحه .. اذ تتذكر فى الحال أوامر حماتها : ـ اسمعى يابنت هذا البيانو ..زينة .. تحفة.. يدل على عظمة البيت وأهله .. لكن لاتحاولى أن تصدعى رءوسنا بالعزف عليه .. اياك أن تفتحيه .. أنا عندى ضغط .. أم لعلك نسيت ؟

ولا تجد ناهد طريقة تخفف بها عن نفسها .. الا أن تدير ظهرها لما تحبه وتستعيد بعض ذكرياتها ..

انها ريفية .. ولدت فى قرية صغيرة متواضعة ولم تعرف لها أهلا غير أمها .. وقد مات أبوها قبل أن تولد

عرفت فيما بعد .. أن فردوس هانم ـ حماتها حاليا ـ كان وما زال عندها أرض تدر عليها ايرادا شهريا فى نفس بلدهم .. وعرفت أيضا .. انها عندما أتمت العام الخامس عشر من عمرها خطبوها لاسماعيل.. لم تكن قد قطعت شوطا طويلا فى المدرسة .. ومع ذلك فقد فرحت .. فرحت بالخطبة .. سترتدى الأثواب الأنيقة البراقة وتتحلى بالمصوغات وتركب القطار .. والأهم من هذا كله .. أنها ستشاهد مصر.. مصر أم الدنيا ..

انها تتذكر جيدا بعض كلمات تبادلتها أمها مع حماتها فقد قالت الاولى : البنت لم تزل صغيرة لاتكاد تعى أو تقدر مسئولية الزواج ..

لكن حماتها الطويلة العريضة ترد بصوتها الأجش المنغم : حد يطول .. ياست بهية .. اسماعيل .. ليس لأنه ابنى .. فهو طيب وهادىء .. ثم لاتنسى أن كل مصاريفها علينا .. جهازها .. والمفروشات .. كل حاجة عندى كاملة .. هيه .. ما رأيك ؟ أنا اخترت ابنتك لأنها ـ بالذات ـ صغيرة أربيها حسب مزاجى !

وناهد مسالمة وقد استطاعت التغلب على كبح رغبتها فى العزف على البيانو بأنها كثيرا ماكانت تختلس لحظات وتدير ـ الراديو ـ حتى يصل اليها صوته وكأنه يناجيها أو يهمس اليها وحدها .. أما المصيبة الحقيقية فهى فى التموين نفسه ..

انها لاتكاد تتصور أن امرأة ناضجة مثل حماتها ومن بيت كريم ـ كما تقول الحماة ـ تناولها الأطعمة .. وكأنها تزنها .. قائلة فى ذلك : لقد ازداد وزنك أكثر مما يجب وأخشى أن يكون هذا أحد العوامل التى تعوق حملك..!

وتفهم ناهد .. المرمى .. فحماتها تذكرها بلوعتها وبأنها لم تحمل من زوجها ولا .. مرة .. وهى لا تعرف لذلك سببا .. ولكن الحقيقة أن حماتها شحيحة .. شحيحة فى عواطفها .. وفى مالها .

آه .. على ذكر المال ان قريب حماتها « السيد عبد الله » الرجل الكهل الذى جاوز الخمسين من عمره .. الأعزب منذ أن ماتت زوجته من عشر سنوات .. هذا القريب ـ من العصب ـ لايرثه شخص .. الا .. الست فردوس وهى تطمع فى أن تنمى ثروتها بعد أن يموت .. وتسائل ناهد نفسها ... مادامت تحب المال هكذا فلماذا لاتنفقه؟ فى الغذاء .. أو الكساء .. أو المتعة .. كالرحلات والأسفار ؟

وتقوم ناهد من على الأريكة الطويلة العريضة .. غير المريحة .. وتفتح .. الباب الضخم الذى يفصل بين الحائطين .. حائط الصالون وحائط الصالة .. وتمسك بالمنفضة محاولة ازالة الغبار من على التحف الدقيقة التى تزين الصالون .. وتتراءى لها الصور .. صورة زوجها اسماعيل .. ان له ضحكة يلهاء ووجه عادى لا هو بالقبيح ولا بالوسيم .. لكنه بليد .. وقد ألفته .. أكثر مما يجب .. كيف لا ؟ انها لم تشاهد أحدا من الرجال سواه

ومن مدة قريبة شاهدت سحنة السيد عبد الله فأيقنت لماذا سمى الرجال .. بالجنس الخشن !

ان اسماعيل يجالسها على المائدة .. ويقاسمها الفراش .. منذ متى ؟ منذ

اكثر من ثلاث سنوات تذكر فى أول مرة عندما سألته : لماذا لانخرج معا ؟

أن أجابها وحواجبـــه مرفوعة تكاد تصـل الى مفرق شـعره : هل جننت ياناهد ؟ هل نسيت رغبات أمى ؟

وناهد تعرف فى نفسـها الحيـاء والخوف ومع ذلك ·· فقـد عقبت على قوله : وماذا يضيرها لو خرجنا معا أو ·· حتى لو صاحبتنا ؟

فيرفع يديه متضجرا ويدمدم : قلت لك مرارا ·· ليس لنا أن نعارضها ·· هى كل شىء فى حياتى ·· ومرضـها يلزمنى أن أرضيها ··

ان اسماعيل بلا وظيفة ·· وهـذه أيضا احدى رغبات أمه فهى تخشى عليا من ارهاق العمل وتقول : ماهو الدافع للوظيفة ما دمت أتحمـل كل أعبـاء البيت ··

الحماة تنفق وناهد تعمل ·· تكنس وتمسح البلاط وتطهى الطعام ··مرات قليلة أو نادرة تشاركها الست فردوس فى طهو بعض ألوان الطعـام ·· التى تفضلها الحماة ··

حياة يومية ·· رتيبة ·· خانقة

ناهد جميلة ·· بل رائعة ·· لقـد تأكدت من ذلك عندما كانت تفتح نافذة حجرة نومهـا واذا بصـفير مهلل يعلو تتخلله عبارات : ما أجملك ·· سبحان الخلاق ··

ولولا حيـاؤها وخوفهـا لاجترأت واكتشفت صـاحب الصفير وعبـارات الاعجاب ، أهو من الجيران أو عابر سبيل

اذن فهى تفتقد الكلمة الحنون النابعة من القـلب أو ·· حتى ·· لمجـرد الاجتذاب

فمنذ أن ماتت أمها الغالية لم يعـد لديها قريب أو حبيب ·· وهى ثغـرة أخرى جديدة تنفذ منها مخالب حماتهـا لتزيدها نهشا وتجريحا ·· ومع ذلك فناهد تملك مدخـرا من الحب لحمـاتها فهى تكاد تقـارب عمـر أمهـا ·· فلم لاتعمل الحمـاة على أن تكون أما لولدها ولزوجه ·· كلمة طيبة ·· ربتة حنان ·· لمسـة تشـجيع ·· حتى ترتفـع معنويتهاوترى للدنيا ظلالا ورديةبجانب لملالها الحالكة ··

كم من مرة حـاولت فيها أن تتقرب الى الست فردوس عسـاها بذلك أن ترضى بعض جوانب نفسها ·· فهى فى احتياج الى أثواب حديثة زاهيـة ان لم ترضى زوجها فحسبها أن ترضى غرورها وأنوثتها ·· وقد تخيرت الوقت الذى تصـبغ فيه شعر حماتهـا ( بالحنة ) وحماتهـا بين يديهـا ·وهى من المرات النادرة · التى تستكن فيها الحماة لأن أية حركة منهـا سواء متعمـدة أو غير تعمدة تتلف عملية الصباغة ··

قالت ناهد وأصابعها الدقيقة تتخلل شعيرات رأس حماتها بحنـان وتؤدة : يانينة ·· أريد ··بل ألتمس منك أن تهبينى بعض المال لـ ··· لأصنع ثوبين· لقـد أعـجبتنى بعض المـوديلات التى شاهدتها فى بعض المجلات ·

وبسرعة خاطفة ·· انتفضت الحمـاة وبدأت·· كتل الحنة تتساقط على عنقها وصـدرها الذى أخذ يعلو ويهبط وهى تهبينى بعض المال لـ ··· لأصنع ثوبين· اذن فهى التى أفسـدتك ·· وجعلتك تهملين فى أداء واجبـاتك المنزليـة ·· والآن صرحى·· واعترفى كيف تحصلين على المجلات ؟

وناهد يتفاقم خوفها ويزداد ارتعاش يديها وكتـل الحنة ما زالت تتسـاقط

عليهما معا .. لكنها تضطر للكلام فتقول : من بائع الجرائد .

وعينا الست فردوس الضيقتان الثعلبيتان .. يزداد لمعانهما فتصرخ فى ناهد : أعنى من أين لك بالمال ؟

وتحس ناهد بالاهانة فتبادلها الصراخ قائلة : من مالى ...

لكن الست فردوس التى تجيد السباب تقول : مالك .. ها .. ها .. أنت المقطوعة من شجرة .. المتسولة .. اعترفى بأنك لصة .. خسيسة .. تهادنين ... لتخدعى ... أنا الطيبة وابنى الساذج ..

وترد ناهد بصوت مرتفع : تجرحين شعورى وتسبينى من أجل قروش أو مليمات ... أيتها الشحيحة ... العجوز ..

وفى الحال يجتاح الغضب كل كيان الست فردوس فتقوم من جلستها وتصرخ تستغلين وجودى بين يديك .. لكننى أستطيع الاستعانة بالست أم محمد (الماشطة) فهى تجيد الصباغة وتحسنها أكثر منك أما الحنة فها هى وأخذت تقذف ناهد بها ولا تكتفى بهذا بل تصفعها على وجهها صفعات قوية مدوية ...

تذكر ناهد أن الذهول انتابها ومن هول المفاجأة لم تستطع أن تفعل شيئا حتى الدفاع عن نفسها ويبدو أنها أسلمت وجهها لحماتها حتى تورم وانتفخ واحمر وتذكر أيضا أنها تعمدت ألا تقول لزوجها شيئا فهى تستطيع أن تحدس ما سيقوله لها : ان أرضيتك أغضبت أمى وان أرضيتها أغضبتك .. بالله عليك .. دعينى فى حالى .. وأنا واثق أنه فى خلال أيام .. سيتم الصلح بينكما ...

كانت ناهد تحمل لحماتها بعض الحب مؤملة فى ذلك أنها فى يوم ما ستستطيع أن تجتذبها الى داخلها .. قد تعمد تطبيعها باخلاص ووفاء . لكن ... بعد هذه الحادثة لم يبق فى نفسها شىء .. ولا حتى الكره .. كانت ترنو الى حماتها وكأنها ترى شبحا هائلا لشيطان لاسبيل للفكاك منه .. أحد طلاله ... زوجها اسماعيل .. طلاقها من الامور المستحيلة .. فماذا تملك هى ليتزوجها آخر ... مال ؟.. نسب ؟.. ثقافة ؟ انها لاتملك شيئا سوى جمالها .. جمالها ؟ وهل هى حقا جميلة ؟ المجرد أن أحد العابثين أطرى ملاحتها ؟

أهى حقا تعيش؟ أين ؟ فى هذا البيت الكئيب الموحش البارد الجاف ؟

لو قدرلها أن تصاب بالعمى لاستطاعت ـ وبمهارة ـ أن تعرف كل دقائق البيت وزواياه ، ثلاث سنوات أو مايقرب وهى تعيش بين جدرانه وله ...

ثلاث سنوات أو ما يقرب وهى تفنى وتتفانى فى البيت وأهله .

ثلاث سنوات أو ما يقرب وهى لاترى ولا تعرف أحدا الا الست فردوس من دنيا النساء واسماعيل من دنيا الرجال .

ولكنها تملك شيئا ثمينا ... شيئا ثمينا وباقيا ... عقلها !!

ثم تتنهد وتتأمل ـ مرة ثانية ـ كل زوايا حجرة الصالون ـ وعندما تتأكد من حسن روائه وجميل نظافته وتنسيقه تغلق وراءها الحاجز أو .. الباب الضخم ..

وتهرول ناحية المطبخ لتستوثق من أن الفطيرة التى أدخلتها الى الفرن .. لم يصيبها مكروه وتتذكر السيد عبد الله ـ والذى من أجله وسواد عينيه ـ صنعت له تلك الفطيرة !

والسيد عبد الله جاوز الخمسين لا تنم ملامحه عن شىء له وجه غير متناسق

الملامح وشعر كله الشيب وجسم غير محدود المعالم ربما كان قصيرا ·· فهو ممتلىء بحيث يختلط طوله بعرضه وربما كان أميل للطول فان الست فردوس وابنها اسماعيل يشرئبان بعنقهما عندما يتحدثان اليه ···

وترى ناهد أن حماتها تتودد كثيرا للسيد عبد الله خاصة فى الآونة الأخيرة ·· ومن لمسات توددها أنها تصر على صنع فنجان القهوة بيديها ( من البن البيتى المحوج بالحبهان والمستكة ) ·

ولا يغيب عن بال ناهد ـ الدافع ـ فقد سمعت حماتها أن السيد عبد الله ينوى الزواج بصبية حلوة من القريبات ـ على آخر الزمن ـ وطبيعى أن يرزق بأطفال أو ـ على الاقل ـ بطفل يقف حجر عثرة بين الميراث وبين الست فردوس ·

وبالرغم من أن العلاقة التى بين ناهد وحماتها اتخذت ـ فى الآونة الأخيرة منذ تلك الحادثة لونا فاترا ··· بالرغم من ذلك لم تستطع الست فردوس التحكم فى أعصابها فكانت ـ من حين لآخر ـ تخرج شكواها وقلقها لزوجة ابنها قائلة : والله عال ··· بعد أن ملأ الشيب رأس السيد عبد الله يفكر فى الزواج ·· وأنا ··· أنا أخرج من المولد بلا حمص ·· انتظر السنوات الطوال وأتودد اليه وأعامله أحسن معاملة وأكرمه عندما يجىء من بلده وبعد ذلك يضيع مجهودى وتؤول أمواله الى طريق آخر ··· جديد ·· ثم تخبط كفيها ·· وهى تدمدم ·· انكم لا تعرفون فانا لا أنام من الليل الا دقائق ·· لكن من يهمه أمرى ؟ من يتحمل المسئولية وينفق غيرى ؟

كان الله فى عونى ·· !···

وتفكر ناهد ·· مليا فى الأمر ·· ثم تبتسم بينها وبين نفسها انها تذكر جيدا كيف كان يتأملها السيد عبد الله عندما تجالسه وتسامره وتحييه بأرق الالفاظ والعبارات وكأن الدنيا كلها قد خلت من الرجال ولم يعد فيها سواه ···

كان يحدثها بعينيه ويخاطبها بتنهدات والهة نابعة من القلب ··· خاصة عندما تكرر له قولها ·· لم يعد لى سواك ياسيد عبد الله ·· فانت عطوف كريم ··· طيب ··· ثم انك جذاب وتشفع قولها بتنهيدة : اننى انتظر مجيئك بفارغ الصبر ·· البارحة ··· البارحة بالنسبة لى يوم الوقفة أما اليوم ·· فانت تزورنا ·· أعنى ·· تزورنى ·· ! فهو يوم عيد ·· فكيف يخطر لك أن تتزوج وتتركنا ؟

لكنه يقاطعها وهو مبهور بحماسها : وهل زواجى يتعارض مع زيارتى لكم ··· أعنى ·· لك !

وتزفر قائلة : صاحب بالين كذاب ·· ثم اننى لن أجالسك بمفردى كعادتى بل سيكون هناك ··· من ··· يفصل بيننا ! اللياقة تقتضى منا ذلك !

وتذكر ناهد هيئة عينيه المحدقتين وهو يقول : لا·· لا يا ناهد لن تحرمينى من حديثك وعطفك انك زادى ·· وابنتى ··· و ···

وتبتسم ثم ترنو اليه بخبث : وماذا أيضا ·· هه ·· لماذا لاتقولها ؟

وتتسارع أنفاسه ويلهث ثم ··· يرتج عليه القول ··

لكن سرعان ما تفيق ناهد من تأملاتها وتتنبه ·· ان الفطيرة التى بداخل الفرن قد حان ميعاد نضجها فتخرجها ·· وتتركها ·· للحظات ختى تبرد !

وتهرول الى حجرتها وتتزين ·· وبعد لحظات تسمع رنين جرس الباب

الخارجي فتخطو خطوات واسعة وتفتح الباب على مصراعيه وهى ترحب : أهلا ٠٠ أهلا بالسيد عبد الله ٠

يجالسها كعادته ٠٠ والست فردوس داخل المطبخ تهيىء فنجال القهوة ٠٠)

وعند انتهـــاء الزيارة تشير ناهد بسبابتها قائلة لحماتها : عندى لك خبر ٠٠ تنتظرينه من زمن وتبرق عينا الست فردوس وتسألها بلهفة مستجدية : طمئنينى بالله عليك ٠٠

تبتسم ناهد ابتسامة واثقة وتقول وهى تخرج كلماتها ببطء مثير : أعنى ٠٠ أعنى بخصوص السيد عبد الله ٠٠

ثم تتأمل ناهد قسمات حماتهـــا فتشاهد الذهول ثم الشك ثم الحيرة ٠٠ وأخيرا اللهفة العاصفة فتخرج كلماتها متقطعة متحشرجة : لم يعد لدى أعصاب ياناهد .. بالله عليك طمنينى هل قرب ميعاد زفافه على عروسه الصبية الفاتنة فتضحك ناهد ضحكات مجلجلة مرحة وتستأنف قولها : عروسه الصبيـــة الفاتنة ؟

لقد كانت الطعم !٠ذكرت له نقائصها التى تكفى ـ واحدة منهـــا ـ كى يفر أفضل عريس ناجيا بنفســـه ٠ ولعله لايغيب عن باك أن ذلك غير صحيح فهى فتاة فاضلة هادئة ٠٠ لكن ٠٠٠ ليس من أجل اسماعيل أو من أجلى أنا تصرفت هكذا ـ ثم تشير بأصبعها ناحية حماتها بحماس ـ بل من اجلك أنت ٠٠٠ أنت وحـــــدك ٠٠ قلت له هذه الأقوال وليسامحنى الله وقد عدل ٠٠ أتسمعين؟ عدل نهائيا عن فكرة الزواج بتلك الصبية أو بغيرها تستطيعين التأكد من ذلك ٠٠ عندما يزورنا فى المرة القادمه ٠٠ والآن ٠٠٠ الآن ســـــأخرج ! وبمفردى ! ألا تريدين شيئا من الخارج ؟

ترد الست فردوس بصوت حالم : لا ٠٠٠ لا يا حبيبتى وأرجو أن ترجعى لنا سالمة ! احذرى خطورة الطرقات :

تستدير ناهد ناحية الباب الخارجى وفى نفسها أشياء وأشياء ! ثم تبتسم وتناجى نفسها ٠٠ هل نسيت أيتهـــا العجوز المخرفة أن الله وهبنى عقلا ٠٠؟

وأنت أيها الابلة ٠٠ السيد عبد الله ٠٠ تحياتى لك ٠٠ فأنا مدينة لك بكل شىء ! ثم ترنو الى الطريق ٠٠ وتتنهـد وكأنها تبتهل ويهتف صوت من أعماقها يقول ٠٠ سأخرج ٠٠ سأخرج لاشـاهد الطرقات ٠٠ الناس ٠٠ العربات ٠٠٠ الحوانيت ٠٠ الحدائق ٠٠ الدنيـا ٠٠٠ الدنيا ٠٠

نعم ٠٠٠ ستخرج من و ٠٠٠ الى ٠٠ أعتاب الفردوس !